﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠﴾ [هود: 110]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسلية الأنام، بمنهج ضَرْب الأمثال، بربط معاناة الأنبياء، مع التّكذيب العلّ

ضُربتُ الأمثالُ بِسُنَّةِ الله تعالى في الأُمَم وأقْوام الأنْبياءِ ﷺ تسليةً وتخفيفًا، وبما عمّت به البلوى؛ والقصدُ: أنّه تعالى لمّا بيّن إصرارَ كُفّارِ مكّة على إنكار التّوحيد، وتقليدِهم آباءَهم في عبادة الشُّركاء من دون الله، بيّن هنا أيضا إصرارَهم على إنكار نبوّته ﷺ، وتكذيبِهم بكتابه، وأنَّ هَؤُلاءِ الكُفّارَ كانوا على هذه السّيرَةِ الفاسِدَةِ مع كُلِّ الأنْبياءِ ﷺ، وأنَّهُ ﷺ لَمّا أنْزَلَ التَّوْراةَ عَلى موسى ﷺ اخْتَلَفوا فيه، فَقَبِلَهُ بَعْضُهم وأنْكَرَهُ آخَرونَ، وذَلِكَ يَدُلُّ عَلى أنَّ عادَةَ الخَلْقِ هَكَذا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَلِمَةٞ﴾: (الكافُ واللّامُ والميمُ) أصل يَدُلُّ على نُطْقٍ مُفْهِمٍ، ومنه الكلام؛ تَقولُ: كَلَّمْتُهُ أُكَلِّمُهُ تَكْليمًا، وهو كَليمي؛ إذا كَلَّمَكَ أو كَلَّمْتَهُ. ثُمَّ يَتَّسِعونَ، فَيُسَمُّونَ اللَّفْظَةَ الواحِدَةَ المُفْهِمَةَ كَلِمَةً، والقِصَّةَ كَلِمَةً، والقَصيدَةَ بِطولِها كَلِمَةً. ويَجْمَعونَ الكَلِمَةَ على كَلِماتٍ وكَلِمٍ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: 46][2]. وكلِمَةُ اللّه: شريعتُه وحُكْمُه وإرادته، "قال تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ [التّوبة: 40]، ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ [يونس: 33]، ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: 158] أي: شرائعه"[3].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب، 18/405.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/131.
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربية المعاصرة: 3/1954.

2) ﴿سَبَقَتْ﴾: (السِّينُ والباءُ والقافُ) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ عَلَى التَّقْديم[1]. وسبَقَ الشَّيءُ: مضى وتقدَّم، كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: 99][2].

3) ﴿مُرِيبٍ﴾: (الرّاءُ والياءُ والباءُ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى شَكٍّ، أو شَكٍّ وخَوْفٍ، فالرَّيْبُ: الشَّكُّ. قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة: 1]، أيْ: لا شَكَّ[3]. ورابَكَ الأمْرُ: إذا أدْخَلَ عَلَيْكَ شَكًّا وخَوْفًا[4]، والرَّيب: صَرْف الدّهر[5]، والشّكُّ المريب: هو الذي تصحبُه شبهةٌ تزيد الإلباس[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـــيـــان أنّ الاختلاف فيما أنزل الله، هو سُنّة المدعوّين مع رسلهم، وهو واقع الأمم قديمًا

ذكّرَ اللّه في هذه الآية بقوم موسى الّذين آتاهم الكتابُ، أي: التّوراة. فاختُلِف في شأنه وتفاصيل أحكامه، فآمن به قومٌ، وكفر به آخَرون، وعَملَ بأحكامه قومٌ، وترك العمل ببعضها آخَرون، فلا يَضِقْ صدرُك - يا محمّد ﷺ - بما وقع من هؤلاء في القرآن، ولولا أنّ اللّه سبحانَه قد حَكَم بتأخير عذابِهم إلى يوم القيامة، لِما عَلِمَ في ذلك منَ الصَّلاح؛ لقضى عليهم عاجلًا، لكنّه سبحانه سيقضي بين قومك، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين، فيُثابُ المحقُّ ويُعذّبُ المُبطل، فإنَّ قومَك لفي شَكّ منَ القرآن مُريب، إن حُملَ على قوم محمّد ﷺ، أو منَ التوراة إن حُملَ على قوم موسى عليه السلام[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/129.
(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربية المعاصرة: 2/1028.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/464.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/464.
(5) ابن منظور، لسان العرب: 1/442.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 2/742.
(7) الشّوكاني، فتح القدير: 2/599.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بالعطف:

اخـتـلاف أهـلِ الـكـتـاب على أنبيائهم، أعظمُ من اختلاف أهل الشّرك

الجملة اعْتِراضٌ لتثبيت النَّبي ﷺ وتَسْلِيَتِه؛ بإعلامه أنَّ أَهْلَ الكِتابِ - وهُم أَحْسَنُ حالًا منْ أَهْلِ الشِّرْكِ - قَدْ أوتوا الكِتابَ فاخْتَلَفوا فيه، وهم أَهْلُ ملَّةٍ واحِدَةٍ، فلا تَأْسَ من اخْتِلافِ قَوْمِكَ عَلَيْكَ، فالجُمْلَةُ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾[1]، وسِرّ العطف: التَّشريكُ بين الفريقين في التّمرّد على الرّسولَين الكريمين عليهما الصّلاة والسّلام.

وجه التَّوكيد باللّام و(قد):

المبالغةُ في التَّأكيد، للعبرة والتَّثبيت

أكَّد الله نزولَ الكتاب على موسى بـ (اللّام) و(قد)؛ ليُبيّن لهم سوءَ صنيعهم بالاختلاف فيه، ويُعَرِّضَ بذمّهم، لكون الاختلافِ في مواطن اليقين وقوّةِ الدّليل جحودًا، وفي ذلك مزيدُ اعتبارٍ للمُعتَبر، وتثبيتٌ للمُتَيقّن، فإنْ كانوا قدِ اختلفوا في شأن ما أوتيَ موسى عليه السلام، ما بين مُذْعِنٍ ومُؤوّلٍ ومخالفٍ، فكيف تنتظر - يا محمّد ﷺ - من قوم أُمّيّين أنْ يُذعِنوا بمجرّد النّزول؛ فالقَصْدُ منَ الإحالة إلى تسليَة الرَّسول ﷺ[2].

إيثار لفظ الإتيان دون غيره:

الإتيـان يُـقـال فيمَن كـان منه قبول

الإتيان: مجيء بسهولة، ويُقال للمَجيء بالذّات وبالأمر وبالتّدبير، ويقال في الخير وفي الشَّرّ، وفي الأعيان والأعراض، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ في وصْف الكتاب ﴿ءَاتَيْنَا﴾ فهو أبلغ؛ لأنّه يُقال فيمن كان منه قبول[3]؛ لكون هذا الفعلِ قد استلزم صفاتٍ متكاملةً، علمًا، وحكمًا، وقُدْرةً، وعفوًا، وجبروتًا، وقهرًا، فهناك أشياءُ كثيرةٌ تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3758 - 3759.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6697.

إضافة الإتيان إليه تعالى بضمير التَّعظيم:

القصدُ إلى التّشريف والتّعزير بالإتيان يستصحب تنزيهَ الرّحمن

أُضيفُ الإتيانُ إلى اللّه تَعالى بضَميرِ العَظَمَة تشريفًا وتعزيرًا؛ لأنَّه أمرٌ يتعلّق بفعل الحقّ سبحانّه، وهو مُنزَّهٌ في ذاته عن أيّ تشبيه، فـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى: 11]؛ فإذا تكلّم الحَقّ سبحانَه على الفعل، فَخُذْ كلّ فعلٍ صدر عنه، بقوّته سبحانَه غيرِ النّهائية[1].

وجه إظهار اسم ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام:

التّسليةُ والتّشريف بذكر أسماء الأنبياء السّابقين، وأحوالِ أقوامهم معَهم؛ لأنّ المصائب إذا عمّت هانت

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة إعراضَ المشركين عنِ اتّباع ما أتى به النّبيُّ ﷺ منَ المعجزات، وأنزل عليه منَ الكتاب، سلّاهُ بأخيه عليه السلام؛ لأنّ الحال إذا عمَّ خَفَّ، وابْتَدَأ ذِكْرَهُ بِحَرْفِ التَّوقُّعِ بِما دَعا إلى تَوقُّعِهِ من قُرْبِ ذِكْرِهِ مَعَ فِرْعَوْنَ، مَعَ ذِكْرِ كِتابِهِ أوَّلَ السّورَةِ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾، أيْ: بِما لَنا منَ العَظَمَةِ، ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: التَّوْراةَ الجامعَةَ للخيرِ[2].

نُكْتَة تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

الدّلالة على ما يَدلّ على الأعيان والذّوات

جاءت لفظة ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ معرّفة؛ لتدلَّ على شيء بعينه، وهو التّوراة[3]، فاللّام فيها عهديّة.

دلالة الفاء في السّياق الحكيم:

علّةُ التَّخَلُّفِ عنِ المنهج، فسادُ العقول والمُهَج

(الفاء) في قوله: ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ﴾ للعطف والتّرتيب من غير تَراخٍ، وكأنَّه ترتَّب على إيتاء اللّه تعالى موسى الكتابَ المسارعةُ إلى الاختلاف، وهذا يدلُّ على أنّ الاختلاف ليس ناشئًا من ذلك الكتاب، بل هو ناشئٌ من فساد النّفوس، وإذا فَسَدتِ النُّفوس لا يقنعُها الدّليل، ولا يهديها البرهانُ، مهما يكن حاسمًا[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6697.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3759.

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿فَٱخۡتُلِفَ﴾:

التَّنبيهُ على أولويّة اللّوازم المقصودة أصالةً، لازمٌ في الإبانة عنِ المراد

لمّا كان الضّارَّ والمسلّيَ الاختلافُ نفسُهُ، جاء الفعل ﴿فَٱخۡتُلِفَ﴾ بصيغة المبنيِّ للمجهول؛ لأنَّ ذكرَ فاعِل الاختلاف لا يتعلَّق به غَرَضٌ، وإنَّما الذي يتعلَّق به الغَرضُ هو ما نَجَم عن هذا الاختلافِ من كُفْر وضلال[1].

دلالة (في) على الظّرفية:

صلاحيّةُ ترديدِ (في) بما يدلّ على مُلابسة الاختلاف، أو سَببيّته، أو تعليقِه

(في) على بابها منَ الظّرفيَّة، وهو هنا مجازٌ، أي: في شأنه. وقيل: هي سببيّةٌ، أي: هو سببُ اختلافهم، كقوله تعالى: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: 11]، أي: يُكَثِّركم بسببه. وقيل: هي بمعنى على، ويكون الضّمير لموسى ﷺ، أي: فاخْتُلِف عليه[2].

عودُ الضَّمير في شبه الجملة ﴿فِيهِۚ﴾:

صلاحيّةُ عَوْدِ الضَّمير على القريب والبعيد

الظّاهرُ عَوْدُ ضمير ﴿فِيهِۚ﴾ على الكِتابِ لِقُرْبِه، ويَجوزُ أنْ يَعودَ عَلَى موسَى ﷺ، ويَلْزَمُ منَ الاِخْتِلافِ في أحَدِهما الاِخْتِلافُ في الآخَرِ[3]. والحاصل: أنّه إذا تقدَّم أمران على ضمير الغَيْبَة؛ فيَصِحُّ أن يعود الضّميرُ إلى كلّ أمرٍ منهما[4].

فائدة التَّعبير بـ ﴿وَلَوۡلَا﴾:

لَوْلا نَظِرَةٌ لَهم إلى يَوْم الدّين، لَقُضِيَ بَيْنَهم في الدُّنْيا

(لَوْلا) حرفُ امتناعٍ لوجود، أي: امتنعَ قضاءُ الله، أي: حُكْمُه فيما بينَهم ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾، وكلمةُ الله السّابقة: هي التّأجيل ليوم الحساب، وتَركُهم في الدّنيا - دارِ البلاء والاختبار - ليَصِلَ كُلٌّ إلى أقصى ما تتأدّى به نزوعه، فيكون حُكْمُه بعدَ الأعمال كلّها[5]. فلولا حِكْمة التَّأخير، لوقعَ العذابُ بينَهم أو فيهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/170، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/282.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/396.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/216.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6696.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3540.

دلالة لفظ ﴿كَلِمَةُ﴾ في الآية:

دلالــة الكلمة على لازم الحُكم والقضاء

الكلمة: هيَ إرادَةُ اللّه الأزَليَّةُ، وسُنَّتُهُ في خَلْقِهِ[1]، وهي عبارةٌ عنِ الحُكم والقضاء. والمعنى: لَقُضيَ بَيْنَهُم - أي: لفُصِل بينَ المؤمن والكافر - بنعيم هذا وعذاب هذا[2].

بلاغة الكناية في لفظة الكلمة:

إخراج المعنى من عـمـوم الـكـلام إلـــى خـصـوص القضاء

الكلمة هنا كنايةٌ عنِ القضاء والقَدَر[3]، وفيه إخراجُ المعنى من عموم الكلام وحقيقتِه، إلى خصوص القضاء والقدر، وواسعِ فضاءِ معناهما.

نُكْتَةُ وصْفِ (الكلمة) بـ(سَبَقَتْ):

تعليق المُقدَّرِ بالمعلوم الأزليّ

وصفَ اللّه تعالى الكلمةَ بالسَّبْقِ لِأنَّها أزَليَّةٌ، باعْتِبارِ تَعَلُّقِ العِلْم بِوُقوعِها، وبِأنَّها تَرْجِعُ إلَى سُنَّةٍ كُلِّيَّةٍ، تَقَرَّرَتْ من قَبْلُ[4].

دلالة حرف الجرّ ﴿مِن﴾:

التّذكير برحمة اللّه وحِكمته، تأكيدٌ لعوارف الإيمان به

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلّقان بـ ﴿سَبَقَتْ﴾، ولحَرْفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾ دلالةٌ بلاغيّةٌ تُحيلُ على المُحْسِنِ إلَيْكَ وإليهم، بإرْسالِكَ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ، وأنّ الذي أخَّرَ العذابَ لن يُخْلِفَ إيقاعَه. فالقَصْدُ التّذكيرُ برحمة اللّه وحِكْمتِه.

إيثار لفظ الرُّبوبيَّة:

سَـوْقُ مـا يَـدُلُّ على لازم الرَّأفة والنُّصرة

التَّعْبيرُ عَنِ الجَلالَةِ بِلَفْظِ: ﴿رَّبِّكَ﴾ لِما في مَعْنَى الرَّبِّ منَ الرَّأْفَةِ بِهِ، والانْتِصارِ لَه، وتوفية حقّه. ولِما في الإضافَةِ إلى ضمير الرَّسول ﷺ منَ التَّشْريفِ، وكِلا الأمْرَيْنِ تَعْزيزٌ لِلتَّسْلِيَةِ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/210.
(3) الزّحيلي، التّفسير المنير: 12/161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/318.

بلاغة الالتفات في الآية الكريمة:

تدليل المتلقّي بالالتفات حالَ التّلقّي

في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا﴾، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ التفاتٌ، وقد سيق الالتفاتُ لحَثِّ السّامعِ وبَعْثِهِ على الاِسْتِماعِ حَيْثُ أَقْبَلَ المُتَكَلِّمُ عَلَيْهِ، وأنَّهُ أعْطاهُ فضلَ عنايةٍ وتخصيصًا بالمواجَهَةِ[1]، كما أنَّه لا يخفى ما فيه من تشريف المخاطَب بكاف الخطاب.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَقُضِيَ﴾:

تُرِكَ العذابُ لكلمةٍ (سبقت)، لا بسبب قُدرة الخصوم على دَفْعِه

اللّام واقعةٌ في جواب ﴿وَلَوْلَا﴾؛ والمعنى: لَعُذِّبوا في الحالِ، وفُرِغَ من عَذابِهِم وإهْلاكِهِم من زمان؛ بدلالة الفعل الماضي المبني للمجهول، ومفهومُهُ: أنَّ تَرْكَ عَذابِ مَن يَستحِقُّه بسبب كلمةٍ ﴿سَبَقَتْ﴾، لا بسبب قُدرتهم على دَفْعِه[2].

سرُّ التَّعبير عنِ القضاء بالبناء للمفعول:

سَوْقُ المبنيّ للمفعول، للاهتمام بالوقوع

سيق القضاءُ بالبناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على إمكانِ تعجيلِ وُقوعِ القَضاء ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أيْ: بَيْنَ مَن اخْتَلَفَ في كِتابِ موسى عاجِلًا، ولَكِن سَبَقَتِ الكَلِمَةُ أنَّ القَضاءَ الكاملَ إنَّما يَكونُ يَوْمَ القيامَةِ، فَيَكونُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ نائِبُ فاعِلِ ﴿لَقُضِيَ﴾. والتَّقْديرُ: لَوقَعَ العَذابُ بَيْنَهم، أيْ: فيهِمْ[3].

بيانُ عود الضّمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾:

تكثيرُ متعلّقاتِ الضَّمائر، لاستيعاب المعاني، بتحقيق مقتضياته

إنَّ ضَميرَ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ قد يكون عائِدًا على اسْم الإشارَةِ، من قوله: ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ ليصبح المعنى: ولَوْلا ما سَبَقَ من حِكْمَةِ الله أنْ يُؤَخِّرَ عنهُمُ العَذابَ لَقُضيَ بَيْنَهم، أي: لَقَضى الله بَيْنَهم، فَأهْلَكَ المُشْرِكينَ والمُخالِفينَ ونَصَرَ المُؤْمنينَ[4]. وقد يكون الضَّميرُ في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائِدًا إلى ما يُفْهَمُ من

(1) الزّركشيّ، البرهان: 3/315.
(2) البغويّ، معالم التنّزيل: 4/202.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر، وابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 12/170.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 12/170.

قوله: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضي جَماعَةً مُخْتَلِفينَ في أحْكام الكِتابِ، ويَكونُ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مُتَعَلِّقًا بـ ﴿لَقُضِيَ﴾، أي: لِحُكْمِ بَيْنَهم بِإظْهارِ المُصيبِ مِنَ المُخْطِئِ في أحْكام الكِتابِ، فَيَكونُ تَحْذيرًا مِنَ الاخْتِلافِ، أي: أنَّهُ إنْ وقَعَ أمْهَلَ اللهُ المُخْتَلِفينَ فَتَرَكَهم في شَكٍّ، والقَرينَةُ واضِحَةٌ[1]. وقوله: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: بينَ قوم موسى أو قومك. وهذه من جملة التَّسليَة أيضًا[2]، وضَميرُ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يَعودُ إلَى المُخْتَلِفينَ المُفادُ من قَوْلِهِ: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ والقَرينَةُ واضِحَةٌ[3].

دلالة جملة ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ﴾:

توقيع تأخير العذاب، لتقدّم القضاء المذكور في الآية

جملةُ ﴿وَلَوۡلَا﴾ تعليليّة؛ لتوقّفِ التّالي على المُتقدم؛ فَسَبْقُ الكلمةِ منَ اللهِ تعالى، بتأجيل الجزاء هو العِلّة في عدم القضاء بينَهم في الدّنيا؛ ليكون المُرادُ: ولَوْلا ما تَقَدَّمَ من حُكْم اللهِ تَعالى بِتَأْخيرِ عَذابِ هَذِهِ الأُمَّةِ إلى يَوْم القيامَةِ، لَكانَ الَّذي يَسْتَحِقُّهُ هَؤُلاءِ الكُفّارُ عِنْدَ عَظيم كُفْرِهِم إنْزالَ عَذابِ الاسْتِئْصالِ عَلَيْهِم، لَكِنَّ المُتَقَدِّمَ من قَضائِهِ أخَّرَ ذَلِكَ عنهم في دُنْياهم[4].

بيان المتشابه اللَّفظيّ:

قضاء الله كلمة ملزمة للسّابق أو اللّاحق

ممّا تضمَّنَه الكتابُ من كلمات ربِّنا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾. ومَن تأمّل حرفَ سورة هود، فَقِه أنَّ كلمةً قد سبقت من ربِّنا أن يُؤخّر القضاءَ بينَ المختلفين، بعدَ إيتاء موسى التّوراة إلى أجل مسمّى، ولم تتضمّن هذه الأحرفُ تفصيلَ الكلمةِ التي سبقت من ربِّنا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/170.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 8/209.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405.

وأمّا قولُه ﷻ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه: 129] وإنِ اشتركت معَ سابقتها في المباني، فإنّ سياق الكلمةِ يُرجِّح أنَّ المراد بها: ما عَلِمَهُ اللّه من تَأْجيلِ حُلولِ العَذابِ بقريش، فاللّه تعالى بِحِكْمَتِهِ أَنْظَرَ قُرَيْشًا، فَلَم يُعَجِّلْ لَهُمُ العَذابَ؛ لِأَنَّهُ أرادَ أَنْ يُنْشَرَ الإسْلامُ بِمَن يُؤْمِنُ منهم وبِذُرِّيّاتِهِم، وفي ذَلِكَ كَرامَةٌ لِلنَّبي مُحَمَّدٍ ﷺ بِتَيْسيرِ أَسْبابِ بَقاءِ شَرْعِهِ وانْتِشارِهِ؛ لِأَنَّهُ الشَّريعَةُ الخاتِمَةُ، وخَصَّ اللّه منهم بِعَذابِ السَّيْفِ والأَسْرِ مَن كانوا أَشِدّاءَ في التَّكْذيبِ والإعْراضِ؛ حِكْمَةً منهُ تَعالى[1].

توجيه عطف جملة الفاصلة في السّياق:

قولُ الحقّ سبحانَه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، يَجوزُ أن يَكونَ عَطْفًا عَلَى جُمْلَةِ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، فَيَكونَ ضَميرُ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائِدًا إلى ما عاد إليه ضَميرُ: ﴿مَا يَعْبُدُونَ﴾ الآيَةَ، أي: إنَّ المُشْرِكينَ لَفي شَكٍّ منْ تَوْفِيَةِ نَصيبِهِمْ؛ لِأَنَّهُم لا يُؤْمِنونَ بِالبَعْثِ. ويَلْتَئِمُ مع قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ على أَوَّلِ الوجْهَيْنِ وأَوْلاهُما، فَضَميرُ ﴿مِّنْهُ﴾ عائِدٌ إلى ﴿يَوْمَ﴾ منْ قَوْلِه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ [هود: 105]... الآية.

المُشْرِكونَ في شَكٍّ منْ تَوْفِيَةِ نَصيبِهِم، لعدم إيمانهم بالبعث

ويَجوزُ أن تَكونَ عَطْفًا عَلَى جُمْلَةِ: ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾، أي: فاخْتَلَفَ فيهِ أَهْلُهُ، أي: أَهْلُ الكِتابِ؛ فَضَميرُ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائِدٌ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ على ثاني الوجْهَيْنِ، أي: اخْتَلَفَ أَهْلُ الكِتابِ في كِتابِهِم، وإنَّهُم لَفي شَكٍّ[2].

بلاغة حَشْدِ المؤكِّدات في الآية الكريمة:

اجتمعت في الآية المؤكّدات: (إنّ، واللّام، المصدر المجّرد، والجملة الاسميّة)؛ لأنّ وصْفَ الشَّكِّ بكثرة الدّلالات تَأْكيدٌ، كقولهمْ:

تكثير المؤكِّدات، يدلّ على شِدّة الإنكار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171، 16/336.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/172.

لَيِّلٌ أَلْيَلُ، وشِعْرٌ شاعِرٌ؛ لهذا جاء الحقّ مُؤَكِّدًا؛ لِأَنَّ كُلَّ طائِفَةٍ مِنَ اليَهودِ تُنْكِرُ شَكَّها فيهِ، وفِعْلُها فِعْلُ الشّاكِّ[1].

عود ضمير ﴿وَإِنَّهُمْ﴾:

جاء سوق الضّمير هنا لِدَفْع تَوهُّم العموم

أُريدَ بِالضَّميرِ في ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ بَعْضُ مَن رَجَعَ إليهم ضَميرُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ لِلْأَمْنِ مِنَ الإلْباسِ[2]؛ لأنَّ المختلِفين منهم مَن أصاب فلم يشملْهُ هذا الحُكْم.

دلالة (في) على الاستعارة التَّبعيَّة:

الدّلالة على ملابسة الاختلاف بالظّرف المجازيّ (في)

حرف (في) دالٌّ على الظّرفيّة المجازيّة، وذلك أنّه شَبّه تمكّنَ الشّكِّ في نفوسهم بإحاطة الظّرف بالمظروف، أي: فاخْتُلِفَ اخْتِلافًا يُلابِسُهُ، أي: يُلابِسُ الكِتابَ[3].

فائدة التَّعبير بالمصدر الصَّريح:

القصدُ إلى بيان تمكُّن الشَّكِّ إلى النُّفوس

إيثار التَّعبير بالمصدر الصّريح في قوله: ﴿لَفِي شَكٍّ﴾؛ لكونه يحتوي على دلالة مباشرة، من تمكُّن الشَّك من نفوسهم ووضوحِه، دونَ حاجةٍ إلى تأويل.

تسوية (الشّك) في الاعتقاد بالإنكار:

المراد بالشَّك ما هو عامٌّ؛ ليشمل الإنكار الجازم لأيِّ لون منه

قوله: ﴿لَفِي شَكٍّ﴾، المراد به ما هو العامّ للإنكار الجازم، والتَّعبير بالشّكّ للتَّنبيه، على أنَّ الشّكّ في باب الاعتقاد كالإنكار[4].

دلالة (من) وعود الضَّمير فيه:

إحالة ما وقع للكتب أو القضاء، تنبيهًا وتسليةً

قوله: ﴿مِّنْهُ﴾، أي: مِنَ القرآن، وإن لم يجْرِ له ذِكْر، فإنَّ ذِكْرَ إيتاءِ كتابِ موسى ووقوعِ الاختلافِ فيه، لا سيّما بصدد التّسلية، يُنادي به نداءً غيرَ خفي[5]. ويجوز في: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِنَ القَضاءِ أو الكِتابِ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/389

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/244، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3759.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/59.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/220.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/244.

(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/389.

نُكْتَةُ التَّعبير بصيغة ﴿مُرِيبٍ﴾:

﴿مُرِيبٍ﴾ من أراب، إذا حَصَلَ الرَّيْب لغيره؛ ومعنى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ﴾ أي: عَظيمٍ مُحيطٍ بِهِم، ﴿مِّنْهُ﴾ أي: منَ القَضاءِ أوِ الكِتابِ، ﴿مُرِيبٍ﴾ موقِعٍ في الرَّيْبِ والتُّهْمَةِ والاِضْطِرابِ، أو صار هو في نفسه ذا رَيْب[1].

سَوْقُ اسم الفاعل للدّلالة على الزّيادة في الإيقاع

بيان وصْفِ الشَّكِّ بالمريب:

وصْفُ الشَّكِّ بالمريب للتّأكيد، كقولهم: لَيْلٌ أَلْيَلُ، وشعر شاعِر[2]. والإسناد في قوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ مجازيّ؛ لما فيه منَ الإسناد إلى الشّيء ما لصاحبه؛ لأنّ الرَّيب صفةٌ للشّاكِّ، فأُسْنِد إلى الشّكّ إسنادًا مجازيًّا؛ لقصد المبالغة[3].

توصيف الشَّك بالمريب بما يحقّق قصدَ المبالغة

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القضاء والحُكم:

يقتضي القضاءُ فصلَ الأمر على التَّمام، من قولك: قضاه إذا أتمَّه وقطع عملَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ [الأنعام: 2]، أي: فصل الحُكم به، وقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: 4]، أي: فصلنا الإعلامَ به، وقوله: ﴿قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: 14]، أي: فصلنا أمرَ موته، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12]، أي: فصل الأمرَ به.

التّفريق بين تمام الفصل في الأمور، وبينَ الحُكم بما يقتضي منعَ الخصوم

أمّا الحُكْمُ، فيقتضي المنعَ عنِ الخصومة، من قولك: أحْكَمْتُه، إذا منعْتُه، قال الشّاعر:

أبني حنيفةَ أحْكِموا سفهاءَكُم *** إنّي أخافُ عليكمُ أن أغْضَبا

ويجوز أن يقال: الحُكْمُ: فصل الأمرِ على الأحكام بما يقتضيه

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/396.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/172.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/331.

العقلُ والشَّرعُ؛ فإذا قيل: حكم بالباطل، فمعناه: أنّه جعل الباطلَ موضعَ الحقِّ. ويُستعمَل الحُكمُ في مواضعَ لا يُستعمَل فيها القضاءُ؛ كقولك: حُكْمُ هذا كحُكْم هذا، أي: هما متماثلان في السَّبب أو العِلّة، أو نحوِ ذلك[1]. ومن هنا: فلفظ ﴿لَقُضِيَ﴾ أنسبُ لسياق الآية، من حيث إنّه تلويح بفصل أمر المختلفين في شأن ما أُنزِل على موسى عليه السلام، على وجهه الأتمّ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 432.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»